إضاءة على الجمعية الدوليّة لعلم الاجتماع

جيفري بليرز(*)
باحث في الصندوق الوطني للبحث العلمي (فنرس)
وجامعة لوفين الكاثوليكية ـ بلجيكا
ورئيس الجمعيّة الدولية لعلم الاجتماع (2023ـ2027).

أولًا: سوسيولوجيا كونيّة: أربعة تحوّلات

(خطاب الرئيس الجديد، المؤتمر الدولي العشرون للجمعية الدوليّة لعلم الاجتماع، ملبرن، 1 تمّوز/يوليو 2023)

بينما ينطوي هدف علم الاجتماع على فهم التّحولات التي يشهدها عالمنا، تؤثر هذه التحوّلات في اختصاصنا أيضًا ويتحوّل هذا الحقل المعرفي ذاته خاضعًا لتلك التحوّلات. ينطبق هذا بشكل أوضح في حالة مشروع علم الاجتماع الكوني الذي يحتاج إلى إعادة التفكير في ضوء التحولات التي يشهدها عالمنا على مدى العقود الماضية. أشير إلى أنني انطلقت في دراسة مسألة العولمة أواخر التسعينيات من القرن الماضي، والتي كانت وَقْتَئِذٍ موضوعًا رئيسًا في علم الاجتماع، حيث مثّل موضوع «علم الاجتماع من أجل عالم واحد» بالتّأكيد الحيّز الذي خصّه المؤتمر الدولي لعلم الاجتماع سنة 1990. وغدت التحدّيات العالميّة أكثر إلحاحًا، وأبلغ أهمّيةً، بعد مرور ثلاث وثلاثين سنة. وما فتئ عالمنا يكتسي طابعًا «كونيًّا» وعلى نحو متزايد. ومع ذلك، فقد تغيّرت طريقة رؤيتنا للعالم وللعولمة ونظرتنا لعلم الاجتماع بشكل بالغ. سأتناول في هذا الخطاب المختصر بإيجاز أربعة من هذه التغيّرات، وأعرض سبب الحاجة إلى تجديد مشروع علم الاجتماع الكوني وأحاول طرح ما تعنيه هذه التغيّرات بالنسبة إلى الجمعيّة الدوليّة لعلم الاجتماع.

ثانيًا: أدوات اتصال وتواصل جديدة

يتمثّل أحد أبرز التغيّرات إثارةً منذ تسعينيات القرن الماضي بالاستخدام المكثّف «لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة». كان العالم السيبراني والإنترنت قد انطلقا للتوّ في التسعينيات، لكن سرعان ما اعتُبر الاتصال ـ وفق كاستيلز ـ أساسًيا لحقبة تتّسم بتزايد حدّة العولمة (Castells, 1996). وغدا الانفتاح الكلي والفاعل على الوسائط والتقنيات الرقمية راهنًا جزءًا

(*) البريد الإلكتروني: geoffrey.pleyers@uclouvain.be

رئيسيًا في الحياة والعلاقات الإنسانية وأنساقها كافّة. وتضمّنت هذه التغيّرات أساليب التواصل بيننا وكيفيّة تلقّينا للمعلومة مُحدِثةً تحولات في نمط العيش سويًّا. وأحدثت تغيّرات مماثلة بل عميقة في الفضاء العام داخل الأنظمة الديمقراطية وغير الليبرالية والاستبدادية على حد سواء.

لقد أتاحت تكنولوجيات الاتصالات الرقمية تحدّيات وولّدت فرصًا للجمعيّة الدولية لعلم الاجتماع وللسوسيولوجيا الكونيّة بتوفيرها أدوات تساعد في إجراء التحاليل الاجتماعيّة من مختلف مناطق العالم وتستهدف بلوغ جمهور أوسع من بين المواطنين وواضعي السياسات. ولعلّ أبرز الدلائل تنظيم الجمعيّة الدوليّة لعلم الاجتماع خلال جائحة كوفيد 19 لأوّل المؤتمرات في العلوم الاجتماعية وأوسعها نطاقًا عبر الإنترنت بعدد حضور فاق ثلاثة آلاف وخمسمئة باحث. وما فتئت وسائل التواصل الاجتماعي الخاصة بالجمعية ومنصّاتها تحافظ على حركيّة جماعتنا دينامياتها وعلى اطّلاع يومي بالمعلومة. كما سمحت الاجتماعات عبر الإنترنت أيضًا المزيد من الديناميات التشاركية، ولا سيما من خلال اجتماعات مجلس البحوث عبر الإنترنت.

ثالثًا: كوكب محدود

لقد غيرت كارثة المناخ والوعي البيئي المتنامي بدرجة بالغة معنى عولمتنا وتجربتها. إذ أشارت «العولمة» في التسعينيات إلى توسّع النموذج الغربي للسّوق والديمقراطية الرّسمية في عالم شهد إعادة توحيده عقب الحرب الباردة حيث بدا لامتناهيًا. واتخذت الأسئلة الأساسية لعلم الاجتماع الكوني راهنًا شكلاً جديدًا في ظلّ الانهيار المناخي وتدمير الطبيعة.

نتساءل إذًا: «كيف لنا التعايش على كوكب محدود؟» يمكن القول إن هذا هو السؤال الأكثر أهمية الواجب على علم الاجتماع تناوله في القرن الحادي والعشرين. إذ تُعدّ مسألة المناخ والقضايا البيئية أكثر من مجرد موضوعات محدّدة يتناولها علم الاجتماع؛ بل مسائل تتقاطع مع جلّ الموضوعات ومجالات مواضيع البحث، وغدت مسألة علم الاجتماع المركزيّة. ولسوف تغيّر تلك القضايا من اختصاصنا ومما يُنتظر من علم الاجتماع ومن علماء الاجتماع. أجادل بمركزيّة هذه المسألة في تعاريف الجمعيّة الدوليّة لعلم الاجتماع خلال السنوات الأربع القادمة.

رابعًا: الاستبداد المتصاعد عوضًا من توسيع نطاق الديمقراطيّة

كان أغلب المفكرين وراسمي السياسات وكذلك الجهات الفاعلة في المجتمع المدني يؤيّدون القناعة خلال التسعينيات من القرن الماضي، أو على الأقل يتقاسمون الأمل في أن تكثيف العولمة والترابط الذي أتاحته شبكة الإنترنت من شأنه أن ينطوي على فكرة توسع الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان.

إلّا أنّه وبعد مضيّ ربع قرن، وُسِمَ الموضوع الذي تمّ اختياره لمؤتمرنا الدولي لسنة 2023 بـ«عودة الاستبداد». عُدّ هذا الوسم الذي قدّمه ساري حنفي خيارًا رائعًا

وفي وقته المناسب، حيث تلاشت الآمال في احتضان موجات جديدة من التّحولات الديمقراطية، والتي برزت مجدّدًا خلال الربيع العربي في العشرية التي تلت تلك الأحداث. وعليه، تعززت الأنظمة غير الليبرالية وغمر الحكم الاستبدادي جميع القارات. حيث تمكّنت تلك الأنظمة من طرق فعّالة في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي وتكنولوجيات الاتصال للسيطرة على شعوبهم وإحكام قبضتها عليهم، والتحكّم في توجيه الانتخابات في بلدان أخرى، وعرض سردياتها ونموذج نظامها وإبرازها عالميّا.

لقد أولى علماء الاجتماع وإخصّائيو علم الاجتماع قدرًا بالغًا من الأبحاث للأنظمة والجهات الفاعلة الاستبدادية، وللحركات التي تمثّل تهديدًا للديمقراطية وغالبًا ما تهدّد علماء الاجتماع على حد سواء. حيث واجهت حريّة البحث تحديات شملت الكثير من البلدان، سواء من خلال تنامي سيطرة الدولة أو عبر مضاعفة الجهات اليمينية المتطرفة أو الميليشيات شبه العسكرية لتهديداتها. وفي هذا السياق، وفي زمننا هذا يتطلب علم الاجتماع الكوني توجيه اهتمام خاصّ ودعمًا لعلماء الاجتماع الذين يواجهون التهديدات حين إجراء أبحاثهم. ففي 25 كانون الثاني/ يناير 2016، تمّ القبض على جوليو ريجيني (Giulio Regeni) عالِم الاجتماع الإيطالي الشاب وعضو لجنة البحوث التابعة للجمعية الدولية لعلم الاجتماع RC47، وقتل على يد الشرطة المصرية أثناء قيامه بالبحث في مسألة النقابات المستقلة في القاهرة. كما بدأ منتدى 2021 بتكريم ماريل فرانكو (Marielle Franco) عالمة الاجتماع وسياسيّة محلية وناشطة مناهضة لعنف الدولة والتي قُتلت على يد العصابات في ريو دي جانيرو في 14 آذار/مارس 2018. كما أشير إلى إحدى المساهمات المتبصّرة في منتدى الجمعية الدولية لعلم الاجتماع لسنة 2021 والتي صاغها جيهان إردال (Cihan Erdal) طالب الدكتوراه في جامعة كارلتون داخل أسوار السجن في أنقرة الذي اعتُقل أثناء قيامه بعمل ميداني في مدينة إسطنبول.

خامسًا: صعود الجنوب العالمي

لقد اقترنت العولمة في تسعينيات القرن الماضي بعمليّة التغريب وبتوسّع اقتصاد السوق الغربيّة وبالثقافة وبأسلوب الحياة ورؤية العالم. وتشير العولمة في القرن الواحد والعشرين إلى صعود فاعلين وبلدان من مختلف مناطق العالم، وتركيز الإعلام العالمي على مسألة هذا البروز بوصفهم فاعلين اقتصاديين وجيوسياسيين. ولم يقلّ دورهم المتنامي بوصفهم منتجين للمعرفة عن الأقلّ أهمية من ذلك.

لقد كان لهذا الصعود أثر فى بعض الاختصاصات بدرجة الأثر ذاته في علم الاجتماع. حيث قلبت الروابط والحوارات الأعمق بين علماء الاجتماع من مختلف القارات، والانتشار الأوسع للأعمال الرائدة التي قدّمها علماء الاجتماع من الجنوب العالمي، ووجهات النظر الجديدة حول تاريخ وجغرافيا اختصاصنا، المعنى الذي كان يحتويه «علم الاجتماع العالمي» رأسًا على

عقب. إذ كانت أدبيات علم الاجتماع العالمي في تسعينيات القرن العشرين خاضعة كلّيًا لسيطرة العلماء الغربيين وغالبًا ما كان يُنظر إلى الجنوب العالمي وإلى «الشرق» كونهما مواقع للبحث التجريبي الذي تغذيه المفاهيم الغربية. وحاليّا يكمن جوهر علم الاجتماع الكوني في جعل إسهامات العلماء والجهات الفاعلة من الجنوب العالمي أكثر وضوحًا مع تحدّيها لهيمنة المعرفة الأوروبية المركزيّة. أشير هنا إلى مساعدة النظريات والمفاهيم والتحليلات التي أجراها علماء الاجتماع من الجنوب العالمي على فهم التحديات الاجتماعية في الجنوب العالمي كما في الشمال العالمي. لقد غيرت تلك المفاهيم والنظريات من أساليب نظرتنا إلى مفاهيم بالغة الأهمّية مثل الحداثة، والتفاوتات، والعدالة البيئية مبرزةً طرائق مختلفة للتواصل مع الطبيعة ومع العالم ومع أنفسنا.

على النقيض ممّا يدعيه بعض منتقدي تلك النظريات والمفاهيم، لا تركّز منظورات الديكولونياليّة وقضايا التبعية وما بعد الاستعمار مشاريعها المعرفية على محو إسهامات «علم الاجتماع الغربي» للشروع في «علم اجتماع ديكولونيالي». وكما الحال مع المعرفة المنتجة في أي جزء آخر من العالم، يستدعي هذا وجوب تثبيت علم الاجتماع الأوروبي وأمريكا الشمالية وجوده في زمانه ومكانه، وأن يواجه تحدّيات ذات الصلة بادعاءاته حول مسألة الكونيّة، وأن يتجّه مسارُ تطوّره ضمن حوار كوني متجدّد مع مفاهيم ورؤى حول العالم ونظريات من الجنوب العالمي

لقد ولت الأيام. إذ لا مجال أن يظل علم الاجتماع الكوني متجذرًا في الجامعات والشرائع الاجتماعيّة الغربية التي قدمت نفسها على أنها كونيّة ولا أن يقتصر على انتقاد علم الاجتماع الغربي.

أعتقد أن المنظورات الديكولونياليّة وما بعد الاستعمار والمنظورات التابعة تدعونا في هذا السياق إلى تحديد النظريات الاجتماعية وإعادة النظر في بعض المفاهيم الأساسيّة ذات العلاقة باختصاصنا ضمن حوار مع الحقائق والمعارف المتجذرة في أجزاء مختلفة من العالم. لقد مثّل فسح مجالات لحوار حصيف بين الباحثين والنهج المتبعة من مختلف القارات وتعزيز مشاركة أفضل للإبيبستيمولوجيات والباحثين من الجنوب العالمي ومن الأقلّيات المقموعة أحد أهمّ الأهداف التي رسمتها الجمعية الدوليّة لعلم الاجتماع منذ تأسيسها، ناهيك وبدرجة أشدّ منذ تسعينيات القرن الماضي وضمن المشاريع التي أعدّها إيمانويل والرشتاين (Immanuel Wallerstein).

أعتقد أنّ إشراك علماء الاجتماع والأبحاث والتحليلات والنظريات من جميع القارات على نحو أكثر شمولاً لا يقتصر على مسألة دمقرطة علم الاجتماع فحسب، بل يعدّ أيضًا أحد أكثر المسارات ثراءً حتّى نعزز إدراكنا للحقائق الاجتماعية وللفاعلين الاجتماعيين. لا يتوقّف هذا على توسيع عضوية الباحثين والاختصاصيين وعلماء الاجتماع من الجنوب العالمي؛ بل يستدعي هذا ضرورة تنمية الجهود للقيام بأكثر من مجرد العضويّة. أشير إلى الحاجة إلى اجتذاب وتعزيز المشاركة النشطة لهؤلاء الزملاء وأن يحظوا بمشاركة كاملة في أنشطة الجمعية وفي لجان البحث التابعة

لنا، والانخراط في فعالياتنا، ومشاريعنا وكذلك دعم جمعياتهم الوطنية.

سادسًا: الانفتاح والاهتمام

لا يعدّ علم الاجتماع الكوني مجرد مشروع نظري، وطيفًا من المناقشات المعرفية، وبعض التحديات المنهجية، بل إنّه أيضًا موقف اجتماعي وثقافي وشخصي في آن واحد.

لقد بدأ علم الاجتماع مساره غداة المنعطف الديكولونيالي وأثناءه، على أساس الانفتاح على رؤى ومنظورات مختلفة قائمة على وجهات نظر وعلى ثقافات وخلفيات اجتماعية مختلفة. وهي متأصّلة في القبول بتعريض النفس لمخاطر فقدان بعض من اليقين والأمل في الاستفادة من لقاء الآخر ومواجهته. فالسوسيولوجيا متأصّلة وتتغذّى من الالتزام – والمتعة ـ في الالتقاء بأشخاص من قارّات مختلفة والاطلاع على حصيلتهم وإسهاماتهم المعرفية . وهي تقوم على الانفتاح في النظر إلى الموضوعات البحثيّة من مناظير مختلفة سعيًا إلى إدراكه بطرق مختلفة، وربمّا إدراك أنفسنا وموقعنا في العالم على نحو متباين.

تمثّل البحوث والنظريات المتبصّرة والمتميّزة من أجزاء مختلفة من العالم، وكذلك الحوارات فيما بين النهج والتحاليل القائمة والرغبة والاستعداد للتعلّم من الآخر، عناصر أساسيّة لبلوغ سوسيولوجيا كونيّة متجدّدة.

كما يشكّل إرساء مساحات تفسح المجال لمزيد تشجيع الحوارات ما بين الثقافات حيث يمكننا من خلالها تقاسم نتائج أبحاثنا ورؤانا في بيئة داعمة لعمري دور الجمعية الدوليّة لعلم الجتماع الأساسي. يستدعي تحقيق مثل هذا الهدف أكثر من مجرد النوايا والخطابات والتحليلات. كما يتطلب أيضًا ممارسات الانفتاح والتسامح والاهتمام بعضنا ببعض، وبخاصة في بيئة دولية ومتعددة الثقافات.

دعوني أسوق مثالًا ملموسًا. قبل أشهر قليلة، كانت لي فرصة حضور مختبر دوكتورالي تابع للجمعية الدولية لعلم الاجتماع.

وصلت إحدى المشاركات منهكة بعد رحلة طويلة ومضنية من فلسطين. أصيبت أثناء العشاء بنوبة ذعر جرّاء استجوابها على الحدود لمدة طويلة. بهدوء أخذها اثنان أو ثلاثةٌ مشاركون إلى طاولة أخرى، واستمعوا إليها وإلى روايتها وأحاطوها بالدعم. كما بادرت باحثة دكتوراه شابة بحجز غرفة في فندق قريب، واعتنت بها أثناء المساء وكانت حريصة على تمتّع المشاركة الفلسطينية ببعض ليلة نوم مريحة. وفي الساعة التاسعة صباحًا من اليوم الموالي، عادت كلتاهما والتحقتا بالمجموعة لحضور الجلسة الافتتاحية، كلتاهما استعدتا لما ستختبرانه من أسبوع ثاقب من التعلم والتبادل مع زملائهما من طلاب الدكتوراه والباحثين من جميع القارات. لقد حدث ذلك بطريقة لطيفة سلسة وسرية إلى درجة أنني لم ألاحظ ذلك في ذلك المساء. ومع ذلك، تعلمّنا هذه الحركة هذا النوع من اللفتة والاهتمام بعضنا ببعض كجزء لا يتجزّأ في تطوير علم الاجتماع العالم.

ولئن بدا هذا الاهتمام وهذه المساندة غالبًا خارج دائرة الضوء إلّا أنّها تظلّ

أساسية للجمعية الدوليّة لعلم الاجتماع. يبرز لنا المثال الذي أشرت إليه أيضًا أن الجمعية الدولية لعلم الاجتماع وعلم الاجتماع الكوني لا يُدركان فقط ضمن اجتماعاتنا ومؤتمراتنا الواسعة. إذ تتجسّد الجمعية كذلك في اللقاءات ما بين الثقافات، وفي مجالات التبادل بين علماء الاجتماع من مختلف القارات، وفي الانفتاح على وجهات النظر والأبحاث من مناطق مختلفة من العالم، وفي ممارسات الاهتمام التي تسنح لنا بتقاسمها في بيئة داعمة. يحظى تطوير علم الاجتماع الكوني هذا والمتجذر في الانفتاح على وجهات نظر الآخرين، وفي ممارسات الرعاية والاهتمام، بأهمّية أبلغ في ظلّ تنامي الاستبداد، والقوميات، والتفاوتات، والانهيار البيئي.

مع اقتراب المؤتمر الدولي العشرين لعلم الاجتماع من نهايته، دعونا نأخذ بعضًا من ممارسات الجمعية الدولية لعلم الاجتماع معنا، ونعمل على تنفيذ هذا الانفتاح على الحوار الكوني على أرض الواقع مع تنمية هذا الاهتمام بعضنا ببعض في ممارساتنا. فلنبنِ معًا علم اجتماع متجدد وأكثر انفتاحًا وأوسع كونيّة، بدءًا من نقطة نشاطنا في تعاريف حياتنا اليومية بوصفنا علماء اجتماع، وباحثين، وأساتذة، ومواطنين، وبشرًا.

يكمن التحدّي الرئيس في عصرنا راهنًا في العودة التدريجيّة للوعي الكوكبي الذي سيمكّننا من العمل معا في مواجهة التحديات المشتركة بدءا بالاحتباس الحراري، والأزمة البيئية، وتنامي التفاوتات، والتهديدات. وإن كنّا نحن علماء الاجتماع في مستوى المهمة الموكلة فسوف يسهم علم الاجتماع لا محالة في الارتقاء بهذا الوعي وستحظى بموقعها في رفع بعض من تحدّيات هذا العصر.

المرجع

Castells, Manuel (1996). *The Rise of the Network Society*. Oxford: Blackwell Publishers Ltd.